

## الفصل الثاني

### المرحلتان الأولى والثانية من حروب الاسترداد في الطور الثاني

سلف ان اشرت في الفصل المتقدم الى انه مع تسلم عماد الدين زنكي سنة ٥٢١ هـ - ١١٢٧ م لزام الامور بالموصل بدأت بالفعل المرحلة الأولى من طور التحرير ، وعماد الدين هو زنكي بن ابي سنقر قسيم الدولة الذي تعرفنا اليه في الجزء الأول من كتابنا هذا ، ولد زنكي في حلب ، ثم انتقل بعد مقتل ابيه الى الموصل ، وهناك حظي برعاية كربوقا حاكم الموصل باسم السلطان برشيا روق ، ويبدو أن زنكي انتقل الى الموصل مع مماليك ابيه ، واعتنى هؤلاء به وكانوا ذوي شجاعة واقدام لذلك صارت لزنكي مكانته في اوساط السلطة ، بالموصل ، وظل الحال هكذا حتى سنة وفاة كربوقا في ٤٩٥ هـ - ١١٠٢ م ، وبعد وفاة كربوقا تقلب على حكم الموصل عدد من الولاة ، حافظ زنكي خلال ذلك على مكانته الرفيعة وشارك في صنع العديد من الأحداث ، ويات من اعرف العسكريين بالموصل وبأوضاع منطقتها وفي سنة ٥١٦ هـ - ١١٢٢ م ذهب الى العراق وتسلم شحنة البصرة واقطع مدينة واسط ، لهذا تورط في مشاكل الصراعات في العراق ، الداء الذي لم يتخلص منه طوال حياته ، وبقي في العراق حتى اضطرت أوضاع الموصل كثيرا فوصل منها الى بغداد القاضي بهاء الدين ابو الحسن علي بن الشهرزوري ومعه صلاح الدين محمد الباغيسيانى لعرض مشكلة الحكم بالموصل على السلطات هناك ، وفي بغداد اتفقا مع زنكي ، وسعيا حتى استصدر امرا سلطانيا بتوليته عماد الدين زنكي الموصل (١) .

وتسلم عماد الدين الحكم بالموصل ، وجعل صلاح الدين

البياغيسياني حاجبه والرجل الثاني بعده ، «وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد... وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكثرهم انبساطا معه وقربا منه ، ورتب الأمور على أحسن حال وأحكم قاعدة» (٣) .

وما أن مكن زنكي نفسه في الموصل حتى نشط في سبيل مد سلطانه فاستولى على جزيرة ابن عمر وتملك دولة شامية جزرية واسعة (٣) ، وكانت هذه المملكة محاطة من مختلف الجوانب بأراضي دولة الرها ، وممتلكات الأراتقة من الجزيرة ، ومن الجانب الشمالي كانت هناك إمارة أنطاكية وإمارات آسيا الصغرى الإسلامية ودولة كليكية الأرمنية ، وفي الجنوب واجه عماد الدين الدولة البورية في دمشق مع فرنجة طرابلس والساحل الشمالي ، ووجد الى جانب هؤلاء جميعا العراق ومشاكل الخلافة والصراعات حولها .

ولم يكن من السهل أبدا على زنكي العيش في هذا الوسط ، لذلك أمضى حياته ينتقل من معركة الى أخرى ومن صراع إلى آخر ، ومن مؤامرة إلى مؤامرة ، وساعده على النجاح صلابة عوده وصرامته وإقدامه وعدم مراعاته لغير ما راه مفيدا لمصالحة وتوسيع ملكه . حارب الفرنج في الشام الشمالي فاسترد منهم الأثارب ومعرة النعمان وكفرطاب ، وحاربهم في الوسط فاسترد بارين واستولى على حماة أكثر من مرة وحاول الاستيلاء على حمص وبعلبك ودمشق وهكذا استردت مدينة حلب بعض عافيتها وأخذت تنهيا للقيام بالدور القيادي ضد الفرنجة .

وعرف زنكي الذي تميز بالانضباط أن الخطر الأعظم على ملكه كامن في الرها ، فقد أراد الفرنجة دوما الاستيلاء على حلب لسد الثغرة فيما بين كل من أنطاكية والرها ، وليسهل عليهم بعد ذلك الاستيلاء على الموصل ومن ثم الاطباق على أراضي الشام والجزيرة ، ولهذا كان رد زنكي الطبيعي تجاه هذا ، العمل في سبيل تحرير الرها ، وتحرير الرها كانت له فوائد جمة منها سد المنافذ الشمالية لبلاد الشام في وجه الفرنجة في فلسطين .

بين نصوص موسوعتنا ترجمة جيدة لزنكي جاءت في كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم ، نعرف من خلالها أن زنكي قد ضرب مثلا أعلى في الجدية والالتزام بالنظام ، وروى ابن العديم أن زنكي كان « ملكا عظيما ، شجاعا جبارا ، كثير العظمة والتجبر ، وهو مع ذلك يراعي أحوال الشرع ، وينقاد إليه ، ويكرم أهل العلم ، وبلغني أنه كان إذا قيل له : أما تخاف الله ؟ يخاف من ذلك ويتصاغر في نفسه » ووصفه واحد من معاصريه بقوله : « كان أتابك زنكي بن قسيم الدولة أق سنقر رحمه الله إذا مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئا من الزرع ، ولا يجسر أحد من هيئته يدوس عرقا من الزرع ، ولا تمشي فرسه فيه ، ولا يقدر أحد من الأجناد أن يأخذ لفلاح علاقة تبس إلا بئمنها أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية ، وإن تعدى أحد صلبه عليها ، وكان إذا بلغه عن جندي أنه تعدى على فلاح قطع خبزه وطرده ، حتى عمر البلاد بعد خرابها ، وأحسن إلى أهالي مملكته ، وكان لا يبقي على مفسد... ونهى عن الكلف والمغارم والسخر والتثقل على الرعية ، وأقام الحدود في بلاده ، ولحاجة زنكي إلى المادة البشرية فرض على شعب دولته نوعا من أنواع الجندية الاجبارية ، حتى صار معظم جند قواته متطوعة من أبناء الشعب .

وكان هم زنكي وشغله الشاغل تحرير الرها ، والقضاء على الدولة الصليبية التي كانت فيها ، وبعد عمل طويل وجهاد عاشته الأمة كلا وأفرادا استطاع زنكي سنة ١١٤٤ م أن يحرر الرها والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيسا في المشرق ، ولقد عم إسقوط الرها صدى بالغ الاتساع والتأثير في المشرق والغرب ، وكانت تلك أقصى ضربة حلت بالفرنجة منذ دخلوا الشام ، وأفدح خسارة المت بهم .

ولعل في القصة التالية التي رواها ابن الأثير في كامله وهي لا شك مخترعة ، صورة عاكسة للآثار العظيمة التي أحدثها إسقوط الرها

على الأوربيين وسواهم : « حكي أن بعض العلماء بالأنساب والتواريخ قال : كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سرية في البحر الى طرابلس الغرب وتلك الأعمال ، فنهبوا وقتلوا ، وكان بصقلية انسان من العلماء المسلمين ، وهو من أهل الصلاح ، وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه ، ويرجع الى قوله ، ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان ، وكان أهل ولايته يقولون إنه مسلم بهذا السبب .

ففي بعض الايام كان جالسا في منظره له تشرف على البحر وإذا قد اقبل مركب لطيف ، واخبره من فيه ان عسكره دخلوا بلاد الاسلام ، وغنموا وقتلوا وظفروا ، وكان المسلم الى جانبه وقد اغفى ، فقال له الملك : يا فلان ' اما تسمع ما يقولون ' قال : لا ! قال : إنهم يخبرون بكذا وكذا ، أين كان محمد عن تلك البلاد واهلها ؟ فقال له : كان قد غاب عنهم ، وشهد فتح الرها ، وقد فتحها المسلمون الآن ، فضحك منه من هناك من الفرنج ، فقال الملك : لا تضحكوا ، فوالله ما يقول إلا الحق ، فبعد أيام وصلت الأخبار من فرنج الشام بفتحها « (٤) .

وتابع زنكي نشاطاته لتنفيذ خطته وحدث انه بعد عامين مضيا على سقوط الرها أن قضى زنكي نحبه غيلة من قبل احد غلمانه ، حدث ذلك وهو يحاصر قلعة جعبر ، ووقع ليلا بينما كان زنكي نائما ، وهرب الغلام الذي اقترب جريمة قتله ، وجاء إلى تحت قلعة جعبر « فنادى أهل القلعة : شيلوني فقد قتلت السلطان ، فقالوا : إذ هب إلى لعنة الله قد قتلت المسلمين كلهم بقتله »

وكان لمصرع زنكي اثرا مفاجعا على نفوس المسلمين ، فدعوه « بالشهيد » وبرغم كثرة الشهداء في التاريخ العربي ، فإن زنكي هو الوحيد الذي عرف بهذا الاسم ، إنما على الرغم من هذا كله لم يوقف موت زنكي مسيرة التحرير ، ولم يؤثر كثيرا على أوضاع

الامة ، ذلك ان الامم الحية لا تتأثر كذير بفقدان القادة ، ولا تتعطل مسيرتها بمصرعهم لأنها تنجبهم الواحد تلو الآخر .

وإثر مصرع زنكي مباشرة ، وقبل ان يوارى جثمانه الثرى انشطرت دولته الى شطرين شامي و آخر جزري عراقي ، واستقر على رأس الشطر الشامي نور الدين محمود بن زنكي .

وقديما قيل : الجغرافية توجه التاريخ ، ومن هذا المنطلق بات التوجه الطبيعي لدولة قسوية في حلب — و نحو الجنوب الشامي ، وستكتفي الموصل منذ الآن — إلى أبعد الحدود ، وقد زال من امامها التهديد الصليبي في الرها — بالاهتمام بشؤون الجزيرة ثم العراق .

وكان مما ساعد نور الدين على التفرغ الشامي ومن ثم التوجه نحو دمشق والجنوب اهتمامه بالجهاد ضد الصليبيين وتضاؤل اعتماده على البداة التركمان كطاقة عسكرية منفردة ، لأن اهتمام التركمان تمركز منذ امد على اسية الصغرى ولأن أعداد كبيرة من الأكراد تجمعت في حلب حول أسد الدين شيركوه ، وجاء هؤلاء الأكراد الى بلاد الشام من اقصى المناطق الشمالية في أطراف جورجيا الحالية ، فهناك وجدت دويلة كردية اسمها دولة منوجهر أو دولة بني شداد ، وكان ملوك الكرج ( جورجيا ) المتعصبون لنصرانيتهم يخوضون هناك حربا صليبية ضد المسلمين ، وقد تمكنوا من الاستيلاء على أملاك دولة منوجهر قلعة تلو الأخرى ، الأمر الذي دفع بالأكراد الى الهجرة ، وكان من أوائل المهاجرين أسرة صلاح الدين حيث عمل جده ثم والده أيوب وعمه شيركوه في العراق ، ثم التحقوا بخدمة زنكي واستقروا في بلاد الشام ، وعندما سقطت دولة منوجهر كثر عدد الأكراد ، وتجمعوا حول شيركوه الذي بات الآن أكبر القادة العسكريين لدى نو الدين ابن زنكي ، ولا شك أن هذا يساعد على فهم مقدمات انتقال السلطة من دولة الأتابكة التركمان الى الأيوبيين الأكراد . ومن الملاحظ أنه بعد ما حررت الرها بات الصراع مع الصليبيين شاميا إلى أبعد

الحدود ، وتولت حلب الآن قيادة أعمال الجهاد ضد الفرنجة ، وبذلك طويت - بعد وفاة زنكي - المرحلة الأولى من طور التحرير ، لتبدأ المرحلة الثانية ، وتمركزت جهود حلب في بداية هذه المرحلة أولا ضد انطاكية لقربها منها ، لكن ما لبثت أن صرفت أنظارها كلياً تقريباً نحو الجنوب ، وجاء هذا تباعاً على خطوات تمكن فيها نور الدين من دخول دمشق وتوحيد الشام المسلم ، وكان من الطبيعي وهو سيد دمشق أن تتجه أنظاره نحو تحرير القدس وللتعاون مع مصر ، وهذا ما تم انجازه في المرحلة الحلبية في ظل قيادة نور الدين ، ونعود الآن الى سياق الأحداث :

لقد اثارت اخبار سقوط الرها مشاعر البابوية ، وحرصتها للدعوة الى حملة صليبية كبيرة تمضي الى المشرق لاستعادة الرها ولاكمال السيطرة على بلاد الشام .

ولقد توفر لهذه الدعوة داعية اسمه « القديس برنارد » شغل الدور نفسه الذي شغله سلفه بطرس الناسك ، وكما أن برنارد سار على خطى بطرس فإن البابا انوسنت الثالث حاول أن يقلد البابا أوربان الثاني ، المبشر الأول بالحروب الصليبية ، فدعا الى عقد مجمع ديني ، وتم ذلك في فرنسا في فصيح سنة ١١٤٤ م وقد حضره عدد كبير من رجال الكنيسة والاقطاع ، الذين خاطبهم البابا فأثار حماسهم ، وأضرم نيران تعصبهم الى حد القرار بالذهاب الى الشرق .

وهكذا تألفت الآن حملة كبيرة شملت مجموعات رئيسة :واحدة من فرنسا بقيادة الملك الفرنسي لويس السابع ، وثانية من المانيا بزعامة الملك كونراد الثالث ، وثالثة من الانكليز والفنلنديين والاطليان وسواهم ، وقدرت الطاقة القتالية للجموع بسبعين الف فارس ، وأعداد هائلة من المشاة والأتباع ، ذهبتم المصادر البيزنطية الى جعلهم سبعمائة الف (هـ) .

وكانت هذه الحملة أكثر نظاماً من الحملة الأولى ، وعندما

وصلت القسطنطينية وعبرت الى البر الآسيوي انفجرت الخلافات بين الملك الفرديسي والملك الألماني بشكل حاد ، فقررا الانفصال وأن يأخذ كل واحد منهما طريقا خاصا نحو الشام .

سار الملك الألماني في سهول الأناضول ففتك به وبرجالها مقاتلو سلاجقة الروم مع الحر والعطش فعاد فلهم ليأخذ طريقا آخر ، وأما الملك الفرديسي ومن بقي من رجال الحملة فأخذ طريق أسية الصغرى وبعد مشاق ومعارك وصل إيطاليا ، ومن هناك ركب نصفهم البحر حتى انطاكية ، وتابع البقية سفرهم برا فأباد أكثرهم التركمان قبل وصولهم إلى مشارف الشام .

وبعد جهود مضيئة وصل الناجون من الحملة إلى القدس ، وهناك اجتمع ملك القدس بكل من الملك الألماني والفرديسي ، واتفق الثلاثة على الزحف إلى دمشق لاحتلالها ، وفي الحقيقة شكل وصول الحملة منذ البداية تهديدا هائلا لحكم نور الدين الناشئ في الشام ، وكان نور الدين بالواقع قد واجه اول تهديد إثر تسلمه لاسلطة ، في الرها ، فقد استغل الصليبيون حالة الفوضى التي تلت وفاة زنكي فاستعادوا الرها وكان ذلك سنة ٥٤١ هـ - ١١٤٦ م ، فقد جمع الفرنجة شتاتهم بقيادة جوسلين الثاني وقصدوا الرها « على غفلة بموافقة من النصارى المقيمين بها ، فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين ، فنهض نور الدين محمود في عسكره ومن اجتمع إليه من التركمان وغيرهم في زهاء عشرة الاف فارس ... ووافوا البلد وقد حل ابن جوسلين واصحابه فيه ، فهجموا عليهم ووقع السيف فيهم ، وقتل من ارمن الرها والنصارى من قتل وانهزم ابن جوسلين بنفسه » ، وهكذا انتهت محاولة الفرنجة هذه بضربة قاصمة خرج منها نور الدين منتصرا مباشرة بمستقبل مشرق للجهاد والتحرير (٦) .

وعلى هذا لم يعد نور الدين يقنع بغير اقتلاع الفرنجة من بلاد الشام ، وشعر أن الله تعالى حين سهّل له الوصول إلى السلطنة القى على عاتقه امانة رعاية مصالح المسلمين والجهاد ضد

الفرنجية ، فنشط ضد إمارة انطاكية واستطاع سنة ٥٤٢ - ٥٤٣ هـ - ١١٤٧ - ١١٤٨ م أن يحرر عدة قلاع مثل ارتاح والأثارب وكفرلانا .

ولقد أثبت نور الدين أنه لا يقل كفاءة وشجاعة عن أبيه ، ومقدرة عسكرية وقد تفوق على أبيه بصفاء نواياه ، وبتفرغه للجهاد فقط داخل بلاد الشام ، ولم يتورط كما فعل زنكي في صراعات العراق وسواها ، وكان نزيها عفيف النفس يحب العلم والعلماء ويؤثرهم ويشجعهم .

وبعدما نجح في تجريد إمارة انطاكية من كثير من ممتلكاتها ، ولتفرغه لشؤون الشام فقط اتجه بنواياه الطيبة نحو دمشق ، وكانت هذه المدينة - كما رأينا - تحكم من قبل بقايا الدولة البورية ويتحكم بها واحد من كبار القادة العسكريين وأسمه معين الدين أنر ، وتبادل نور الدين السفارات مع أنر حتى « استقر الحال بينهما على أجمل صفة ، وأحسن قضية ، وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين ، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما » .

وتوجس الفرنجة شرا من هذا التقارب ، وخاصة بعدما أخذت قوات نور الدين تذبذب في حوران وتحبط مشاريعهم في السيطرة على السواد وبعض قلاع المنطقة ، لكن أهم نتائج التقارب هذا ظهرت أثناء التصدي لقوات الحملة الثانية لدى حصارها لمدينة دمشق ، فقد أخفق الحصار ، وتعرت سلطات دمشق وأفلاست شعبيا لاعتمادها على حماية مملكة القدس لها ، مما سبب رفع سمعة نور الدين وقاد بالنهاية إلى تسلمه لمقاليذ الأمور بدمشق ، فبعدما وصلت قوات الملك الفرنسي وغيرها من القوات إلى انطاكية عام ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م ، حاول أميرها الاستفادة منها في مهاجمة حلب فأخفق ، وقرر الملك الفرنسي الذهاب إلى القدس وهذا ما كان ، وبذلك لم تتوجه الحملة إلى الرها لاستردادها حسب الخطط التي وضعتها قبل الانطلاق من أوروبا .

وكان بطريك القدس قد ذهب للقاء الملك الفرنسي لاقناعه بالقدوم إلى القدس ، فقد رغب ملك القدس ورجال الاكليروس فيها وسواهم بالاستيلاء على دمشق قبل اتحادها مع حلب ودخول نور الدين إليها ، وبالفعل بعد وصول أعضاء الحملة إلى فلسطين عقد قيادة الفرنجة الوافدين والبلديين مؤتمرا في عكا قرروا في ختامه بعد مداوات مطولة « إنه في الظروف الحالية يبقى أفضل الأعمال هو الاقدام على حصار دمشق ، ذلك انها مدينة كانت تشكل خطرا كبيرا على مملكة القدس » .

وبالفعل انطلقت قوات الفرنجة يتقدمها صليب الصليبوت ، واخذت الطريق نحو دمشق فاجتازت جسر الصنبرة بعد طبرية ، ولدى الوصول إلى بانياس عقد قادتها مؤتمرا عسكريا حضره عدد من الأشخاص الذين كانوا خبراء بأحوال دمشق المدينة والمنطقة ، وبالنتيجة تقرر فرض الحصار على دمشق من الجهة الغربية بعد الاستيلاء على البساتين هناك .

وكان تعداد الفرنجة لا يقل عن خمسين الفا ، وبعدها اجتاز هؤلاء المنطقة الوعرة فيما بين بانياس واحواز دمشق نزلوا في بلدة داريا ، ومن هناك امتدت قواتهم حتى خانق الربوة عند الدكة على نهر يزيد .

وعلى هذا كان بإمكان النجدات أن تصل إلى دمشق من حوران ومن بعلبك وكذلك من المناطق الشرقية ، وكانت منطقة البساتين التي فصلت بين معسكر الفرنجة ومدينة دمشق كثيفة الأشجار ، ممراتها ضيقة ، أحاط بكل بستان سور من الطوب الطيني الكبير ( دك ) ، وفي داخل البساتين نصب المدافعون عن المدينة الكمان للفرنجة وفتكوا بهم ، ووقعت معارك شديدة بين المسلمين والصليبيين ، واخذت النجدات تتدفق على دمشق ، وضغط أهل دمشق على معين الدين أنر لاتاحة الفرصة لنور الدين للدفاع عن مدينتهم والجهاد ضد الغزاة ، وهكذا أمكن رد المهاجمين عن الاسوار ، مما أقنع قادة الفرنجة باستحالة الاستيلاء على دمشق

من الجهة الغربية ، فقرروا التحول وحصارها من الجانب الشرقي حيث انعدمت الغابات في الخارج وطمعا بالتعاون مع سكان احياء الداخل الذين كان جهم نصارى ، ومجددا أخفق الغزاة ، وشرعوا بالانسحاب ، ونجت دمشق من الحصار الصليبي الثاني في تاريخها والآخر ، وربح الجولة نور الدين ، فقد عقدت عليه الآمال ، ووضع هو بدوره الخطط لدخول دمشق وتوحيد بلاد الشام ، ورأى أن العمل المجدي ضد الوجود الفرنجي هو تدمير مملكة القدس اللاتينية ، فهي الرأس في القوة والمكانة الدينية ، ومتى قطع الرأس خمدت بقية أطراف الجسد (٧) .

وكان من معاني إخفاق الفرنجة في الاستيلاء على دمشق أن مشروع الحملة الصليبية الثانية قد بء بالافاق الكامل ، وأن التوسع الفرنجي باتجاه دمشق أو باتجاه حلب بات محالا ، وأنه بعد أم قريب لن يكون أمام الفرنجة غير البحر أو مصر .

ووضع نور الدين الخطط لدخول دمشق وأخذ في تمهيد السبيل إلى ذلك حيث استغل وقوع اضطرابات وصراعات على السلطة في القدس بين بلدوين الثالث الشاب وأمه الوصية على العرش ، واستفاد من حادثة اغتيال ريموند الثاني كونت طرابلس ، وقام في سنة ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م بمهاجمة حصون أنطاكية وعندما حاولت قوات أنطاكية بقيادة الأمير ريموند ندي بواتيه التصدي له أبانها ، وقتل أميرها ، ثم تمكن في العام التالي من أسر صاحب تل باشر ، وبهذا تم له تصفية الوجود الفرنجي في كونتية الرها بشكل كامل .

وحدث في سنة ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م أن توفي سيف الدين غازي - أخو نور الدين - صاحب الموصل ، وحاولت بعض الأطراف توريط نور الدين بمشاكل الجزيرة والموصل فأخفقت ، واجتمع نور الدين بأخيه قطب الدين الذي تولى شؤون الموصل « وأنفقت كلمتهما واتحدت أراؤهما ، وكل واحد منهما لا يصدر إلا عن أمر أخيه » ، وبذلك ظل نور الدين متفرغا للشؤون الشامية فقط .

وفي هذه السنة بالذات توفي معين الدين أنر المتحكم بدمشق ،  
وبذلك عادت مقاليد الأمور إلى الأمير البوري الشرعي مجير الدين  
أبق بن محمد بن بوري بن طفتكين ، وكان ضعيف الشخصية سيئ  
التدبير ، لهذا كثرت الطامعون في الولاية وانتشرت عصابات الفرنجة  
ونشطت في ديار الدولة خاصة في حوران ، مما دفع نور الدين إلى  
قيادة قواته إلى هذه المنطقة ، وذلك أنه كان يرى من واجبه الدفاع  
عن أراضي المسلمين سواء أكانت تابعة له أم تحت إمرة غيره ، وكان  
هذا سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ، ولدى زحفه جنوباً كتب إلى من في  
دمشق يعلمهم بما عزم عليه في الجهاد ، ويستدعي منهم المعونة على  
ذلك بألف فارس ، تصل إليه مع مقدم يعول عليه ، وقد كانوا عاهدوا  
الفرنج أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من يستأجر  
المسلمين ، فاحتج عليه ، وغولط ... وقد كانوا راسلوا الأفرنج  
بخبره وقرروا معهم الانجاد عليه .

ويبدو أن نور الدين كان على معرفة بمسألة التهادن والتحالف  
بين أبق وبلدوين الثالث ، ثم إنه لم يكن في الحقيقة بحاجة إلى قوات  
دمشقية تشاركه في النشاط في حوران ، لكنه أراد من جانب أول  
تلقين الفرنجة درساً قاسياً وإفهامهم أن التحالف مع أبق لا يفيد ، ثم  
إنه ابتغى من جانب آخر تعرية أبق وأركان سلطته واختبار موقف  
أهل دمشق إن لم نقل إثارتهم ، وحقق نور الدين كل ما استهدفه  
وزاد على ذلك أنه ظهر في أعين الناس جميعاً من أصدقاء وأعداء أنه  
مسؤول عن الدفاع عن دمشق وأنه بطل الإسلام والمجاهد في سبيل  
الله ضد الفرنجة .

ومن حوران جدد نور الدين مراسلة السلطات البورية في دمشق  
قائلاً : « إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالبا لمحاربتكم  
ولامنارلتكم ، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكايمة المسلمين من  
أهل حوران والعربان بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم وشتمتت  
نساءهم وأطفالهم بيد الأفرنج ، عدم الناصر لهم ، ولايسعني مع  
ما أعطاني الله ، وله الحمد ، من الاقتدار على نصره

المسلمين ، وجهاد المشركين ، وكثرة المال والرجال ولا يحصل لي ، القعود عنهم ، والانتصار لهم ، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها ، والتقصير الذي دعاكم الى الاستصراخ بالافرنج على محاربتي ، وبنلكم لهم اموال الضعفاء والمساكين من الرعية ، ظلما لهم وتعديا عليهم ، وهذا ما لا يرضي الله تعالى ولا احد من المسلمين .

وعلى قاعدة اذا لم تستح فافعل ماشئت جاهر رجال الدولة البورية بمواقفهم فكتبوا الى نور الدين جوابا على رسالته « ليس بيننا وبينك الا السيف ، وسيوافينا من الافرنج ما يعيننا على دفعك ان قصدتنا ، ونزلت علينا ، واثار نور الدين هذا الجواب واغضبه » وعزم على الزحف الى البلد ومحاربتة « ثم انه « اشفق من سفك دماء المسلمين ان اقام على حربها والمضايقة لها » فقد كان يعرف ان ابق ورجاله مستعصمون وراء اسوار قلعة دمشق ، وراسل ابق نور الدين بعد هذا ، ثم خرج الى لقائه فخلع عليه نور الدين « خلعة كاملة بالطوق ، واعاده مكرما محترما ، وخطب له على منبر دمشق ... ثم استدعى الرئيس ( رئيس المدينة ) الى المخيم وخلع عليه خلعة مكملة ايضا واعاده الى البلد ، وخرج اليه جماعة من الاجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به ، فوصل من استماحه من الطلاب والفقراء والضعفاء بحيث ماخاب قاصده ، ولا اكدى من سئاله » ثم رحل عائدا الى حلب وكان ذلك في مطلع سنة ٥٤٥ هـ - ١١٥٠ م .

ومنذ عودة نور الدين الى حلب ، اخذت تتوارد عليه اخبار مقلقة من مصر ، لهذا رأى من واجبه انقاذ مصر وانقاذ شعبها ، ولم يكن ذلك ممكنا من دون القضاء على حكم الدولة البورية وتوحيد البلاد الشامية ، ولهذا قام في مطلع عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م بقيادة قواته نحو دمشق وشرع بحصارها ومنع المؤن عنها « ووافت رسل نور الدين الى ولاة امر البلاد تقول : انا ما اوتر إلا صلاح المسلمين ، وجهاد المشركين ، وخلصن من في ايديهم من

الأسارى ، فإن ظهرت معي في عسكر دمشق ، وتعاضدنا على الجهاد ، وجرى الأمر على الوفاق والسداد ، فذلك غاية الايثار والمراد ، فلم يعد الجواب اليه بما يرضاه ، ويوافق مبتغاه .  
وشدد نور الدين التضييق على دمشق مع أوامر واضحة لجنده بعدم « الزحف الى البلد ، ومحاربة من فيه اشفاقا من قتل النفوس ، واثنان الجراح . ولم « يأذن لأحد من عسكره في التسرع الى قتال أحد من المسلمين من رجال البلد وعوامه ، تخرجوا من اراقة الدم فيما لايجدي نفعا » .

وفي اثناء الحصار وصلت الأخبار الى نور الدين بوصول جيوش الفرنجة الى أرض حوران وزحفها نحو دمشق ، فاضطر نور الدين الى رفع الحصار عن المدينة والزحف نحو الفرنجة ، وخرجت من دمشق بعض قواتها حيث اتحدت مع الفرنجة للقتال ضد نور الدين وللإستيلاء على بلدة بصرى ، ولم تفلح هذه الخطة ، ومع هذا راسل الفرنجة رجال الدولة البورية « يلتمسون باقى المقاطعة المبنولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق ، وقالوا : لولا نحن ندفعه مارحل عنكم » .

لكن نور الدين ترك حصار دمشق مؤقتا حتى يدفع الفرنج ، وبعدها دفعهم عاود حصار دمشق وهو مطمئن انه لن يقع بين نارين : نار الفرنجة ونار القوات البورية و « استمر رأي نور الدين على وقف الزحف الى البلد ومحاربة أهله وعسكريته تخرجوا من قتل المسلمين ، وقال : لا حاجة الى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضا ، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين » وفي هذه الأثناء جرت اتصالات بنور الدين لشراء رضاه وتوسط في ذلك بعض الفقهاء وأسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب ، وتبعها لذلك رفع نور الدين الحصار وعاد أدرجه الى حلب ، وبعد أمده قصير « توجه مجير الدين - أبى - صاحب دمشق الى حلب في خواصه ، ووصل اليها ودخل على نور الدين صاحبها ، وأكرمه وبالغ في الفعل الجميل في حقه ، وقرر معه قرارات اقترحها

عليه ، بعد أن بذل له الطاعة وحسن النياية عنه في دمشق ، وبذلك صارت دمشق نظريا تابعة لسلطان نور الدين ، ومع هذا جاءت خطوة أبق واعترافه بسيادة نور الدين لكسب الوقت .

وفي هذه الآونة نجح الصليبيون في الاستيلاء على مدينة عسقلان ، وبعملهم هذا باتوا يمتلكون الساحل الشامى من اسكندرونة في الشمال حتى غزة في الجنوب ، وبذلك حرّموا المسلمين من امكانات الافادة من البحر ، وعقب ابن الأثير في كامله على سقوط عسقلان بقوله : « فقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق ، واستضعفوا مجير الدين » .

وقرر نور الدين حسم الأمور خاصة بعدما تصاعدت مكانته لدى اهل دمشق ، فزحف في محرم عام ٤٤٩ هـ / اذار ١٠٥٧ م الى دمشق ولدى وصوله اليها اخضعها لحصار اقتصادي ، وطالب بتسليمه إياها ، فرفض مجير الدين أبق وحاول المقاومة ودفن نور الدين بالقوة ، لكن قواته كانت متخالفة ، وهكذا تمكن عدد من جند نور الدين من تسلق أسوار المدينة حيث نصبوا علم نور الدين « وصاحوا : نور الدين يامنصور ، وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله ، وحسن ذكره ، وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه الى الباب الشرقي ، فكسر أغلاقه ، وفتح فدخل منه العسكر على رعب ، وسعوا في الطرقات ، ولم يقف أحد بين ايديهم ، وفتح باب توما أيضا ودخل الناس منه ، ثم دخل الملك نور الدين وخواصه ، وسر كافة الناس ومن الأجناد والعسكرية لما هم عليه من الجوع وغلاء الأسعار ، والخوف من منازل الأفرنج الكفار » .

وكان دخول نور الدين الى دمشق هو الحدث الأعظم في تاريخ بلاد الشام منذ قيام الحروب الصليبية ، فقد تم الآن توحيد بلاد الشام ، وكانت هذه الوحدة الانطلاقة لوحدة عربية أوسع وأهم ، وقال وليم الصوري مؤرخ المملكة اللاتينية الذي عاصر هذا الحدث معقبا عليه ومعبرا بالوقت نفسه عما خالج سادة مملكة

القدس اللاتينية » وكان هذا التغيير مشؤوما بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة ، فقد برز خصم مرعب بدلا من رجل بلا سلطة جعله ضعفه غير مؤذ للمسيحيين ، وقد استمر يدفع اليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت ، لأنه كما قيل : كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب وتبعا لكلمات مخلصنا تميل ممالك كثيرة حين تتحد لكسب القوة من بعضها ، وتظهر بقوة اكبر ضد عدو مشترك» (٨) .

وتحول نور الدين الآن من حلب الى دمشق ، وبهذا تحولت دمشق عن الموقف السلبي تجاه الصليبيين الى وضع ايجابي تقود به حرب الاسترداد بشكل حاسم ، ونجم عن هذا قيام حركة علمية نشطة فنور الدين بنى البيمارستان النوري ، واقام دار العدل ، ودار الحديث النورية ، وهي اول جامعة لعلوم الحديث في التاريخ الإسلامي ، وهو ايضا الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ لمدينة دمشق في ثمانين مجلدة ، وهذا امر لم يعهد له مثيل في سير الأمم وتواريخها ، كل هذا ضمن انجازات اخرى تصدرها التخطيط لانقاذ مصر والتحضير لتحرير القدس الشريف .

وقال ابن الأثير معقبا على دخول نور الدين لدمشق وتوحيده لبلاد الشام : «وكان ابغض الأشياء الى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لأنه يأخذ حصونهم ومعاقلمهم وليست له ، فكيف اذا اخذها وقوي بها» (٩) .

وصحيح ان نور الدين نقل مقر حكومته الى دمشق ، لكنه ابقى مدينة حلب معقل أسرته ومقرها الدائم والاساسي ، وسيتضح هذا بعد وفاته ، أي ان دخول نور الدين الى دمشق لم يمهده مرحلة حلب في حرب الاسترداد ، فهذه المرحلة انتهت بعيد دخول صلاح الدين الى دمشق وتأسيسه الأسرة الأيوبية .

وكانت بلدة بانياسر وقلعتها الحصينة - الصيبية - المركز الدفاعي الاول عن دمشق في وجه مملكة القدس اللاتينية ، وحين دخل نور الدين دمشق ، وجد هذه المدينة مع قلعتها بأيدي الفرنجة قد تسلموها من قبل من امراء الدولة البورية ، لذلك خطط نور الدين

لاستردادها ، وبعد القيام بعدة أعمال عسكرية ناجحة في منطقتها حاصرها نور الدين سنة ٥٥٣ هـ - ١١٥٨ م ، واستطاع أولا تحرير المدينة ، وشرع في حصار القلعة ، وفي تلك الأثناء قدم ملك القدس للتفريغ عن الصبيبة ، فانسحب نور الدين من بانياس وكمن مع قواته في الشعراء القريبة من المنطقة ، وبذل الملك الفرنسي الى بانياس وقام ببعض أعمال الترميم فيها ، ثم شحنها بالمؤن والمقاتلة ومن ثم انسحب عائدا ، وعسكر مع قواته على مقربة من بحيرة الحولة معتقدا ان نور الدين قد عاد الى دمشق ، ولكنه فوجئ بانقضاض نور الدين على معسكره ، فمزقه وقتل رجالاته ، ونجا الملك الفرنسي من الموت بكل صعوبة ، وقام نور الدين باجتياح المنطقة ، ثم عاد الى بانياس ليحاصرها ثانية لكنه اضطر مجددا لرفع الحصار ، لأن الفرنجة جمعوا من جديد جيشا زحف ثانية نحو بانياس لنجدها ، وفي الحقيقة لم يتمكن نور الدين من تحرير بانياس وقلعتها حتى سنة ٥٥٩ هـ - ١١٦٢ م ومرد ذلك انه بعيد رفع الحصار عن بانياس توجه الى حلب ، وهناك أصيب بمرض عضال الزمه الفراش حتى أرجف به ويؤس من الشفاء فأوصى لأخيه ميرمران بالملك من بعده ، وقد استغل الفرنجة هذا الوضع لصالحهم ، غير انه لحسن الحظ شفي نور الدين ومن ثم عاود نشاطاته بشكل مؤثر وفعال مما دفع الصليبيين للتحالف مع الامبراطورية البيزنطية ، لكن في سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٢ م توفي بلدوين الثالث ملك القدس ، فخلفه اخوه عموري الأول (١٠) :

وكان عموري قبل توليه الملك حاكما ليافا وعسقلان ، قريبا من مصر مطالعا على اوضاعها الداخلية المضطربة ، لذلك وضع خططه للاستيلاء على مصر ، حتى انه كلف وليم رئيس اساقفة صور أن يتولى اعداد كتاب يؤرخ به لاحتلاله مصر ، لأنه اعتقد أن القاهرة لقمة سهلة التناول لا يوجد من يحول دون تناوله اياها!

وكان هذا صحيحا بالنسبة للوضع داخل القاهرة ، غير ان وجود نورالدين عطل خطط الفرنجة وأحبطها ، حيث أرسل ثلاث حملات عسكرية الى مصر ، تمكنت أخيرا من انقاذ هذا القطر والحقاقه

بالشام ، وقاد هذه الحملات اسد الدين شيركوه ، وقد رافقه فيها ابن اخيه يوسف بن ايوب ( صلاح الدين ) ، وشغل صلاح الدين في هذه الوقائع دورا رئيسا وتجلت في تلك الاثناء مواهبه ومؤهلاته ، مما رشحه للزعامة ، وذلك بالاضافة الى تعرفة على مصر وعلى مشاكلها وامكاناتها .

سنبحث مسألة هذه الحملات بعد قليل لدى التفرغ للحديث عن قيام صلاح الدين ، ولعله يكفي ان نذكر الآن انه في سنة ١١٦٧ م تمكن نور الدين من توحيد مصر مع بلاد الشام ، وفي سنة ١١٧١ م تم الغاء الخلافة الفاطمية ، وقامت في مصر حياة جديدة وبقظة متفتحة ، وبدأت مصر تستعد للاسهام في أعمال التحرير ، وطوقت الآن ممتلكات الصليبيين ، واعد نور الدين قواته من اجل معركة فاصلة ، وكان موقنا من ان النصر سيكون لحليفه ، وانه لن يكون بعد فترة للصليبيين وجود في الشام ، وبلغت استعدادات نور الدين ويقينه من النصر الى حد انه امر بصنع منبر لتخطب عليه خطبة الجمعة الاولى في المسجد الاقصى بعد تحريره (١١).

وكان صلاح الدين يوسف بن ايوب واليا لنور الدين على مصر ، وقبل ان يتوجه نور الدين على رأس قواته نحو فلسطين اصدر اوامره الى صلاح الدين بقيادة قوات مصر ، والالتقاء معه على اسوار الكرك ، ولكن - ولكل عظيم سقطة - غلبت انازية صلاح الدين وشهوته للسلطة على نفسه ، وذلك بتحريض جهازه الذي احاط به له ، وتخويفه من نور الدين - فتلكا صلاح الدين ولم ينفذ اوامر نور الدين متعللا بأوهى الاسباب ، وهكذا تأجل موعد المعركة الفاصلة ، وكلفت شهوة السلطة الامة سنينا طويلة اخرى من الدم والعذاب .

وتوفي نور الدين بشكل مفاجى عام ١١٧٤ م ، وقام بعده صلاح الدين ، فاستطاع ان يرث دولته ، ولهذا حديث اخر ميدانه فيما يلي :

## قيام صلاح الدين

هناك خلاف شديد بين المؤرخين حول دور البطل في التاريخ، فبعضهم يعتقد أنه وجد بين البشر من ملك من الطاقات ماجعله يفوق سواه من الناس في وقته ، وبذلك تسنى له أن يتربع على عرش الزعامة ، وأن يحدث تغييرات كبيرة، ويحقق انجازات خطيرة ، تأثر بها معاصروه، ومن أتى بعدهم ، لكن بنسب متفاوتة، مما سبب له الشهرة والخلود .

وبعضهم الآخر ينكر دور البطل الفرد في صنع أحداث التاريخ حسب مشيئته ، ويعتقد أن الجماهير هي البطل الحقيقي الذي يصنع أحداث التاريخ ، ولكن إذا تذكرنا أن لكل واقعة من الوقائع ، العديد من الأسباب المتنوعة البعيدة والقريبة ، وأن المسببات هي سابقة للواقعة وأصل لها ، خففنا من غلواء الاعتقاد بأن الفرد البطل قادر وحده على صناعة التاريخ ، وأن الفرد البطل وحده لا شيء بدون جماهير تستجيب لإقضيته ، التي تعتبرها قضيتها ، وتتعاون معه وتحت قيادته ، لتنفيذ مطامح متشابكة بشكل معقد .

على هذا يمكن رؤية نور الفرد والجماعات في صنع التاريخ من خلال قضايا كبرى ذات جنور بعيدة في الماضي لها أسباب قريبة ، وحين تتضافر الأسباب وتتوفر القدرة على الانجاز يقوم دور الفرد على مدى فاعليته في الانجاز ، وقد يكون الانجاز كبيرا ، له فاعلية الجسم المستمر ، وقد يحدث أن يقوم فراغ كبير إثر غياب البطل ، وهنا نجد الفراغ والحاجة يقودان نحو تذكر دور البطل واستغلاله بشكل جديد فيه حسرة واغناء وشروح وتفسيرات ثم اضمفاء مواد جديدة عليه ، وهكذا يتحول دور البطل من واقعة تاريخية الى واقعة شبه أسطورية .

هذا ما يواجهنا عندما نود البحث في سيرة صلاح الدين وخاصة

الفترة المبكرة من حياته أي قبل وصوله الى السلطة ، ذلك ان صلاح الدين مثل غيره من الأبطال اهتم المؤرخون بأخباره بعدما وصل الى واجهة السلطة ، فجمعوها ، وهنا شعروا بالحاجة الى التعرف الى أخباره قبل السلطة فأقبلوا على جمعها من الذكريات ، وعملية الجمع هذه بأئسة بسبب قلة مصادر المعلومات ، هذا مع ما تسببه رواية بعض الأخبار من إحراج ، ولما جبل عليه البشر من مداراة وادب ولباقة إن لم نقل رياء ونفاق ، ولهذا فإننا لن نقف طويلا عند طفولة صلاح الدين وأعماله قبل وصوله الى السلطة .

لقد سكنت المناطق الجبلية الواقعة في اعالي الجزيرة شمالي الموصل وشمالها الشرقي بعدد كبير من القبائل الكردية ، وكان الأكراد غالبا ما يهاجرون الى بلدان الجزيرة حيث يندمجون يسكانها ، وعندما ضعفت السلطة المركزية في بغداد ، وأخذت أطراف الدولة تنفصل ، كان من بين القوى التي تحركت بعض قبائل الأكراد ، فمنهم من تجند في واحد من الجيوش ، ومنهم من شغل نفسه بالاغارة على أراضي الامبراطورية البيزنطية ، وهكذا وجد في القرن العاشر لدى الأكراد عدد من الغزاة تجمع حول كل واحد منهم عصابة عسكرية خاصة ، واشتهر من بين هؤلاء رجل اسمه باذ استطاع - كما ذكرنا من قبل - أن يؤسس دولة في ميفارقين وديار بكر عرفت باسم الدولة الروانية ( ٣٧٢ - ٤٧٨ هـ / ٩٨٣ - ١٠٨٥ م ) .

وفي القرن الحادي عشر عندما هاجرت قبائل التركمان من منطقة ما وراء نهر جيحون الى خراسان فالعراق والجزيرة وأسسية الصغرى والشام دفع التركمان أمامهم أعداد كبيرة من الأكراد ، ومع نهاية القرن الحادي عشر صار عدد العناصر الكردية العاملة في جيوش دويلات بلاد الشام والعراق والجزيرة كبيرا ، وجذبت الحروب المزيد ، لكن كان لانسياح التركمان في أسسية الصغرى وأرمينية وأذربيجان والحروب هناك مع الأرمن والكرج والبيزنطيين الأثر الأعظم في قدوم أعداد جديدة كبيرة من

الأكراد ، كما حدث مع بني شداد الذين أشرنا اليهم من قبل ، ومع تزايد الأكراد وتناقص التركمان قامت الفرص أمام الأكراد في بلاد الشام بشكل خاص لوراثثة دول التركمان ، وأعني بهذا الدولة الاتابكية ، دولة نور الدين بن زنكي .

هذا وسلفت الاشارة الى عماد الدين زنكي وتأسيسه للدولة الاتابكية في الموصل ، كما سلفت الاشارة الى منجزات عماد الدين في حرب الاسترداد ضد الفرنجة ، لكن من المفيد أن نشير الى أن عماد الدين تورط في عدد من الصراعات السلجوقية في العراق ، ففي سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م هزم زنكي في العراق فانسحب بفلول جيشه نحو تكريت يريد جواز دجلة ، وكانت قلعة تكريت يحكمها ضابط كردي اسمه نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان ، وقام أيوب بتقديم المساعدات والمعابر لزنكي مما كان له عظيم الأثر على زنكي ، وبعد عودته الى الموصل أرسل زنكي له الهدايا وأخذ الطرفان يتبادلان المراسلات والسفارات ، وقد ضاق بتصرفات أيوب سادة بغداد أعداء زنكي ، واضطروا الى عزله عن ولاية تكريت ، فاضطر أيوب في ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م الى مغادرة تكريت ميمما شطر الموصل ، ويروى أنه في الليلة التي غادر بها أيوب تكريت ولد له مولود ذكر سماه يوسف ، وهو الذي سيُشهر فيما بعد باسم صلاح الدين .

واستقبل زنكي أيوب وأسرته بترحاب وأقطعهم أقطاعات كبيرة ، وانخرط أفراد الأسرة في خدمة زنكي ، وبرز بعد أيوب أخوه شيركوه ، وبرهن على كفاءات عسكرية عالية ، وعندما احتل زنكي بعلبك سنة ٥٣٤ هـ / ١١٤٠ م عين أيوب واليا عليها وأقطعه بثلاثها ، وظل أيوب في بعلبك حتى مقتل زنكي ، وهنا في هذه المدينة الاستراتيجية ترعرع صلاح الدين في كنف أبيه وعمه ، وقد انه تلقى ما كان يتلقاه أبناء طائفته من أهل عصره من تدريبات عسكرية وثقافة عربية إسلامية (١٢) .

وبعد وفاة زنكي صارت بعلبك من أملاك دمشق ، وفي سنة

١١٥٢ م ، وكان صلاح الدين قد صار في الرابعة عشرة من عمره ، غادر بصحبة عمه شيركوه بعلبك الى حلب حيث دخلا في خدمة صاحبها نور الدين الشهيد ، وسريعا غدا شيركوه من ابرز امراء جيش تور الدين ، وقد حاز على اقطاعات خاصة ، وتجمع حوله قوة عسكرية خاصة ستعرف فيما بعد باسم الاسدية ، لان شيركوه كان يلقب بأسد الدين ، ومن المرجح ان صلاح الدين نال من عمه رعاية خاصة ، وقد رافقه بشكل دائم حتى حل منه محل النائب ، كما ان صلاح الدين قد تأثر عظيم الاثر بخلق نور الدين ومثله كلها ، وفي سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ دخل نور الدين مدينة دمشق ، فعين شيركوه شحنة - حاكما عسكريا - لها ، وفي سنة ١١٥٦ م تبسّم صلاح الدين منصب نائب شحنة دمشق لفترة قصيرة ، حيث ترك عمله هذا والتحق بجيوش نور الدين وشارك في اعمالها الحزبية ضد الفرنجة ، ولازم نور الدين ملازمة شديدة حتى صار من رجاله المقربين ، وقد وصف ابن ابي طي ذلك بقوله : « واستخص نور الدين صلاح الدين ، والحقه بخواصه ، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر ، وكان تفوق في لعب الكرة - البولو - وكان نور الدين يحب لعب الكرة » (١٣) .

وفي الحقيقة نال صلاح الدين شهرته ، وبدأ يدخل الباب العريض للتاريخ عندما رافق عمه شيركوه في حملات نور الدين على مصر .

كانت مصر انئذ مقرا للخلافة الفاطمية ، ودون الدخول بتفاصيل تاريخ هذه الخلافة تكفي الاشارة الى ان الفاطميين ضعفت قوتهم بشكل كبير وخاصة في القرن الحادي عشر ، وكان ابرز الخلفاء الذين حكموا في القاهرة في هذا القرن المستنصر بالله ( ١٠٣٦ - ١٠٩٤ ) ففي ايام هذه الخليفة هوت الخلافة الفاطمية بسرعة كبيرة .

كانت الخلافة الفاطمية خلافة شيعية عقائدية ، قام نظامها على سيطرة الامام الخليفة على كل فروع السلطة ، وعددها ثلاثة وهي : الادارة ، الدعوة الاسماعيلية والدعاة ، والجيش ، وكان الخليفة

يعين من يقوم بأعباء الإدارة غالباً باسم وزير ، أما الدعوة وإن ارتبطت بالامام مباشرة فقد كان المسؤول عنها يعرف باسم « داعي الدعوة » ، وكان داعي الدعوة هذا يرأس الحزب الاسماعيلي للخلافة الفاطمية ، ويسير جيشاً هائلاً من الدعوة الموزعين في كافة أنحاء عالم أسية وشمال إفريقيا .

وكان الجيش يرأسه قائد مرتبته الثالثة في سلم الإدارة الفاطمية أي بعد الوزير وداعي الدعوة ، والخلافة الفاطمية كما هو معلوم كانت قد قامت في إفريقية ( تونس ) على أيدي قبائل كتامة البربرية وسواها ، وعندما استولى الفاطميون على مصر وانتقلوا إليها كان قوام جيشهم من العناصر البربرية ، لكن مع الاستيلاء على مصر اصطدم هذا الجيش بجند بلاد الشام ، وقرامطة الأحساء والبحرين ، وأتراك العراق ، فهزم ، وتبين للخلفاء عجز عساكرهم أمام عساكر المشرق ، لذلك شرعوا في تجنيد بعض العناصر التركية والعربية والديلمية ، كما استوردوا أعداد هائلة من الرقيق الأسود وأدخلوها في جيشهم ، وهكذا صار الجيش الفاطمي قوامه عدة عناصر بشرية مشرقية ومغربية وإفريقية ، ويقدر بعض الباحثين بأن عدد السودان صار حوالي ثلاثين ألفاً كونوا سلاح المشاة ، في حين أن بقية العناصر كانت من الفرسان .

ومنذ أواخر القرن العاشر بدأ جند الخلافة الفاطمية يزيدون من صلاحياتهم على حساب المؤسسات الأخرى ، وفي أيام المستنصر جرت محاولات انقلابية استهدفت الحكم على الخليفة والخلافة حسب ما كان جارياً في مركز الخلافة العباسية ، ونجحت إحدى المحاولات سنة ١٠٧٤ م بقيادة ضابط من أصل أرمني اسمه بدر الجمالي ، ومنذ ذلك الحين حكم قائد للجند على الخليفة وصار سيدياً فعلياً ومطلقاً للخلافة الفاطمية يحمل من الألقاب : أمير الجيوش ، الوزير وداعي الدعوة ، وصار هذا المنصب وراثياً أيضاً ، وعندما وصل الغزو الصليبي إلى الشام كان الأفضل بن بدر الجمالي عزيز مصر وسيدها .

وقد أدى هذا إلى ردات فعل مؤثرة داخل الدعوة الاسماعيلية وقاد بعد وفاة المستنصر مباشرة إلى انشقاق الدعوة الاسماعيلية إلى شطرين : نزارية ومستعلية ، ذلك أنه عندما توفي المستنصر واجه الأفضل أمير الجيوش أمر اختيار خليفة جديد ، وكان هناك نزار الابن الأكبر للمستنصر ، وكان معيناً لولاية العهد ، والمستعلي وكان أصغر من نزار وأضعف وبدون سند أو جماعة ، فاختره أمير الجيوش خليفة وصاهره ، وهنا هرب نزار إلى الاسكندرية ، وقام بثورة هناك ، فلاحقته قوات أمير الجيوش ، وقضت عليه وعلى حركته .

ورفضت أعداد عظيمة من الاسماعيلية خارج مصر الاعتراف بالمستعلي ، وبرز بينهم في المشرق داعية كبير اسمه حسن الصباح ، قام بتأسيس دعوة اسماعيلية جديدة عرفت باسم - الحشيشية - أعلنت الحرب على خصومها وقررت اغتيالهم طقوسياً بواسطة الطعن بالسكاكين ، ولقراية ثلاثة قرون اغتال الحشيشية عدداً كبيراً من قادة المسلمين والصلبيين ، واستولوا في المشرق والشام على عدد من القلاع الحصينة ، وكان دورهم أيام الحروب الصليبية متميزاً (١٤) .

وفي القاهرة توفي المستعلي سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م فخلفه ابنه الأمر ، وفي سنة ٥٢٤ هـ - ١١٢٠ م اغتال الحشيشية هذا الخليفة فكان آخر الخلفاء الأئمة ، حيث جاء بعده أربعة تربعوا على عرش القاهرة لكن خلفاء فقط لا أئمة ، أي أن سلطتهم كانت زمانية فقط ، وضعفت مصر أيام هؤلاء الأربعة ضعفاً شديداً ، وقامت صراعات داخلية بين عدد من الجند حول السلطة والحكم ، واشتدت هذه الصراعات أيام نور الدين ، وخاصة عقب دخوله إلى دمشق ، وتنبه نور الدين إلى ما كان يجري في مصر ، وبلغه أن الصليبيين يريدون الاستيلاء عليها ، وأن بعض رجالات الصراعات الداخلية قد اتصلوا بهم ودعوهم للقدوم إلى القاهرة .

ودون الدخول هنا بكبير تفاصيل الأحداث ، يكفي أن نذكر أن

نور الدين بعث بثلاث حملات متتالية إلى مصر قادها واحدة تلو الأخرى أسد الدين شيركوه ، وشغل فيها صلاح الدين دورا ، لاشك انه كان كبيرا جدا ، وأن دوره هذا هو الذي رشحه للزعامة ، كما أن هذه الحملات عرفت صلاح الدين على مصر ومشاكلها ، وجعلته مع القوات الأسيديّة ينالون تدريبات عسكرية عملية ، ولاشك أن صلاح الدين أقام في أثناء ذلك بعض العلاقات مع بعض القوى السياسية المصرية ، وخاصة المعارضة منها .

وكان من بين الذين تحكّموا بمصر وزير اسمه شاوور السعدي اصطدم بوالي الصعيد واسمه زرغام بن ثعلبة ، فهزم ، واضطر إلى مغادرة القاهرة والتوجه إلى دمشق حيث التجأ إلى نور الدين وطلب مساعدته ، ولاشك هذا اللجوء والطلب قد لاقى هوى في نفس نور الدين ، لكنه تردد في الإجابة وأقبل على دراسة القضية بجميع أبعادها ، ووضع خطة عسكرية تقضي بإرسال فرقة من قواته بقيادة شيركوه ، وبالوقت نفسه إشغال الفرنجة في الشام عسكريا حتى لا تتاح لهم الفرصة للتدخل وقطع الطريق على شيركوه ، وفي جمادى الثانية لسنة ٥٥٩ هـ / أيار ١١٦٤ م انطلق شيركوه يريد مصر ، وعندما سمع زرغام بمسير جنود الشام نحو مصر توجه نحو الصليبيين يئشده العون ، ووصل شيركوه إلى مصر وهزم قوات زرغام ودخل القاهرة ، فأعاد شاوور « إلى منصبه ومرتبته ، وقرر قواعده ، واستقر أمره وشاهد البلاد وعرف أحوالها ، وعاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد ، وعرف أنها بلاد بغير رجال ، تمشي الأمور فيها بمجرد الأيهاام والمحال » .

وما إن استقر شيركوه في مصر قليلا حتى عرف أساليب الحكم في القاهرة ، فتركها وتحصن في بلدة بلبيس ، وأراد شاوور إخراج شيركوه فأخفق ، فاتصل بعموري ملك القدس وعرض عليه مبلغا كبيرا من المال للقدوم إلى مساعدته ، وخف عموري على رأس قواته ، وبعدما وصل مصر قام يساعده شاوور بمهاجمة بلبيس ، وتصدى شيركوه للمهاجمين واتخذ موقف الدفاع ، وقام عموري

بمحاصرته واستمر الحصار ثلاثة اشهر ، قام خلالها نور الدين - وقد أخفق في إرسال النجدات إلى شيركوه - بضغط عسكري شديد على ممتلكات الصليبيين في الشام ، فاضطر عموري إلى التفاوض مع شيركوه ، فاتفقا على الانسحاب جميعا من مصر ، وهذا ما حصل (١٥) .

ولم ترض النتائج المتواضعة لحملة شيركوه نور الدين ، إنما وضعت في روعه أن احتلال مصر أمر لا بد منه ، وأنه يحتاج إلى قوة أكبر من التي أرسلت ، وفي مصر كان شاور متيقنا من عودة جيوش الشام لذلك « كاتب الفرنج ، وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد .... وبلغ ذلك أسد الدين والملك العادل نور الدين فاشتد خوفهم على مصر أن يملكها الكفار » .

وبادر نور الدين إلى تجهيز جيش جديد ، عهد بقيادته إلى شيركوه ، ومرة ثانية رافق صلاح الدين عمه ، وفي ربيع الأول لسنة ٥٦٢ هـ / كانون ثاني ١١٦٧ م انطلق الجيش نحو مصر ، وبعد صعوبات شديدة وصل إلى اطفيح على بعد أربعين ميلا من القاهرة إلى الجنوب منها ، وهناك عبر النيل وتابع سيره حتى الجيزة حيث عسكر هناك .

ووصل في الوقت نفسه جيش مملكة القدس الصليبية يقوده الملك عموري ، وعسكر تحت أسوار القسطنطينية ، بحيث تفاوض مع شاور ، فتم الاتفاق على أن يدفع شاور للفرنجة أربعمئة الف قطعة ذهبية مقابل عدم تخليهم عنه .

وراقب الجيشان الشامى والصليبي بعضهما بعضا عبر النيل ، ولم يتعجل شيركوه المعركة ، ذلك أنه كان على معرفة بأخلاق الفرسان الصليبيين وامتزجتهم ، فالفرسان الصليبي كان لا يعرف الانضباط ، وكان عديم الصبر متهورا ، وكانت أفضل الوسائل للتعامل معه مطاوعة القتال كيما يركبه الملل فيتهور بعمل انتحاري طائش أو ينسحب ، كما كان شيركوه عنده أخبار عن قيام نور الدين بالضغط العسكري الشديد على ممتلكات الصليبيين في الشام .

وكان موقف شيركوه العام حرجا فعقد مجلسا حربيا لدراسة الموقف ، وفي هذا المجلس كان رأي غالبية القادة الانسحاب والعودة إلى الشام وقالوا لشيركوه : « إن نحن انهزمنا - وهو الذي لاشك فيه - فإلى أين نلتجىء وبمن نحتمي ... وحق لعساكر عدتهم ألف فارس قد بعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم أن ترتاع من لقاء عشرات الألوف » وعارض أحد القادة هذا الرأي وقال : « من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون ... في بيته ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ، لياخذن أقطاعاتكم ، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم ، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار ، ! فقال شيركوه هذا رأي وواقفه صلاح الدين ، واتخذ القرار بذلك .

وعبر جيش الفرنجة النيل ، فتراجع أمامه شيركوه إلى منطقة الأشمونين وعبأ قواته للمعركة في بقعة عرفنت باسم « البابين » وكانت قوات شيركوه لاتتجاوز الألفين ، في حين أن قوات الفرنجة وشاور كانت أضعاف ذلك .

وقامت خطة شيركوه على فصل سلاح فرسان العدو عن مشاته ، وكان فرسان الصليبيين مدرعين سلاحهم الأساسي هو الرمح الغليظ الاسطوانة ، وكان الفارس الصليبي يحزم نفسه إلى ظهر فرسه ، ويسلط رمحه إلى الأمام ويمسكه بكلتا يديه أو يضعه في مكان مخصص تحت إبطه ، واعتمد قتال هذا الفارس على قوة الخرق التي كان ينالها من اندفاع فرسه ، وبطبيعة تسليحه هذا كان بحاجة إلى حماية من جنود مشاة ، كما أنه كان لا يستطيع البقاء على أرض المعركة طويلا ذلك أنه كان يصاب بالانهك ، لأن دروعه كانت تعيق تعرق جسده .

ومع أن طاقات الفارس الصليبي كانت جبارة إلا أنه كان وحيد التسليح منعدم المرونة ، ليس لديه قدرة على الانسياب .  
ورتب شيركوه قواته الترتيب الخماسي المعتاد : مقدمة ، قلب ،

مؤخرة ، ميمنة ، ميسرة ، وقام بوضع جميع العتاد مع القلب حتى يظهر حجمه كبيرا وعهد لصالح الدين بقيادة القلب ، وتسلم هو قيادة الميمنة ، وأوصى صالح الدين وأعوانه بقوله : « فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم » .

وانقض فرسان الفرنجة على قلب جيش شيركوه ، « فقاتلهم من به قتالا يسيرا ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم » ، وهنا قامت ثغرة بين سلاحي الفرسان والمشاة لدى الفرنجة « فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على « مشاة الفرنجة » فهزموهم ووضع السيف فيهم ، فأثنى ، وأكثر القتل والأسر ، وانهم الباقون ، فلما عاد الفرنج من إثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعا ليس به منهم ديارا فانهمزوا » .

وإثر المعركة توجه شيركوه نحو الاسكندرية فدخلها ، وترك بها حامية صغيرة بقيادة ابن أخيه صالح الدين وتوجه هو نحو الصعيد ليجمع الخراج ، وفي أثناء هذا أعاد عموري تشكيل قواته مع قوات شاوور وزحف نحو الاسكندرية ، وأثناء ذلك راسل شيركوه شاوور ، وعرض عليه التعاون معا ضد الفرنجة ، ووعده أنه بمجرد طرد الفرنجة من مصر فإنه سينسحب مع قواته عائدا إلى الشام ، ورفض شاوور الاستجابة ، فقتل رسول شيركوه وأطلع الملك عموري على محتوى المراسلة .

وزحفت قوات الفرنجة وشاوور على الاسكندرية والقبيا عليها الحصار ، وأثناء ذلك حاول عموري الذهاب إلى الصعيد لقتال شيركوه فأقنعه شاوور بعدم الذهاب ، وحوصرت الاسكندرية لمدة أربعة أشهر ، صمد خلالها صالح الدين صمودا رائعا وأظهر براعة قتالية كبيرة ، كما نجح في كسب تأييد أهل المدينة له بحيث تقاتلوا في الدفاع معه ، وعندما اشتد الحصار قدم شيركوه من الصعيد ، وهنا جرت مفاوضات بين عموري وشيركوه اتفقا فيها على الانسحاب جميعا من مصر ، وهكذا رفع الحصار عن الاسكندرية ، وغادر

صلاح الدين وقواته المدينة في شوال ٥٦٣ هـ / اب ١١٦٧ م ، وكان في الاتفاقية أن يتم نقل الجرحى من جيش الشام على سفن الفرنجة إلى عكا ومن هناك إلى دمشق (١٦) .

وفي دمشق ساء نور الدين اذ سحب قواته من مصر ، لكنه لم يقيم بنقد شيركوه أو لومه ، بل قدر له نصره في معركة البابين ، وأخذ من جديد يعد العدة لحملة ثالثة على مصر تكون حاسمة ، وفي المقابل زاد عموري ، وقد وصلتته النجيدات من أوروبا ، من استعداداته لغزو مصر ، وكان قد اتفق سرا مع شاور على ابقاء حامية عسكرية في القاهرة تساعد على البقاء في منصبه ، ويقول أبو شامة في الروضتين : « وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر - الفسطاط - والقاهرة ، واسكنوا فرسانهم أبواب البلدين والمفاتيح معهم .... وتحكموا تحكما كبيرا فطفوا في البلاد وأرسلوا إلى ملكهم مري ، ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا إلى الشام ، مثله شجاعة ومكرا ودهاء ، يستدعونه لتملك البلاد ، وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه ، فلم يجيبهم إلى المسير ، واجتمع فرسان الفرنج ، ونور الراي والتقدم ، وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم الراي عندي أن لا نقصدها ، فإنها طعمة لنا ، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها ، فإن صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده ، وفلاحها لا يسلمونها إلينا ويقاثلوننا نونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنج واجلاؤهم من أرض الشام ، فلم يصغوا إلى قوله وقالوا إن مصر لا مانع ولا حافظ لها ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا نكون قد ملكناها وفرغنا من أمرها ، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة ، فلا يقدر عليها ، وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها ، فأجابهم إلى ذلك .»

وينكر وليم الصوري أن اشاعة انتشرت في اوساط الصليبيين

مفادها أن شاوور كان يرأسل سرا نور الدين ويطلب عونه للتخلص من الصليبيين ، لذلك جمع الملك جميع قوات مملكته من فرسان ومشاة وتوجه مسرعا نحو مصر ، وفي العشرين من تشرين الثاني ١١٦٨ (ربيع الأول ٥٦٤ ) اجتاز بعسقلان ، وبعد عشرة أيام من الزحف عبر الصحراء وصل الصليبيون إلى بلبيس حيث حاصروها ثم اقتحموها ، وكما يقول وليم الصوري : « وضع معظم سكانها طعمة للسياف دونما اعتبار للسنس والجنس ، وإذا صدف ونجا بعضهم من الموت فإنهم فقدوا حرياتهم ووضعوا على رقابهم نير العبودية التعيس ، وهو مصير بالنسبة للناس الشرفاء أسوأ من أي نوع من أنواع الموت » . وكان من بين الأسرى ابن شاوور وابن أخيه .

ويصف وليم بعد هذا المجل تفاصيل مذابح بلبيس ، ثم يحدثنا بأن عموري أمر بهدم بلبيس ، ثم زحف يريد القاهرة ، فوصلها وأقام معسكره أمامها وبدأت آلات الحصار لديه بالعمل ، وشدد عموري الحصار وضغط على شاوور الذي ارتاع لكل ما حدث فأقدم على طرح النار في مدينة الفسطاط فأحرقها ، وظلت النيران تعمل بها مدة أربعة وخمسين يوما ، ورأسل في الوقت نفسه نور الدين ، وقام الخليفة العاضد بإرسال أجزاء من شعر بعض نساء المسلمين إلى نور الدين ، كما قام شاوور بمراسلة عموري وعرض عليه مبلغ «مليونى قطعة ذهبية مقابل اطلاق سراح ابنه وابن أخيه وانسحاب القوات إلى ديارها » وتهدهه أنه إذا لم يقبل سيحرق القاهرة كما أحرق الفسطاط .

وكان عموري عندما توجه نحو مصر قد أعد أسطولا كبيرا أمره بالتوجه نحو مصر ، وبالفعل وصل هذا الأسطول إلى بحيرة المنزلة ، وأخذ تديس ، وأبحر في النيل يريد الوصول إلى معسكر الفرنجة ، لكن « المصريين سدوا النيل بمراكبهم ومنعوه من العبور » وأحرقوا عددا من سفنه ، وعندما بلغت الأخبار الملك عموري قرر إرسال حملة للاستيلاء على طرف من أطراف النيل على

الاقبل ، ولكن هذه الحملة لم تمض إلى تنفيذ ما رسم لها ، ذلك أن الأخبار وصلت الى عموري بأن شيركوه في طريقه إلى مصر ، وقد أجبره هذا على تغيير الخطة ، فأمر الأسطول بالابحار عائدا إلى البحر في الحال والعودة الى الديار ، واستمرت الاتصالات مع شاور الذي عجل بمبلغ مائة ألف قطعة والابتعاد عن أسوار القاهرة حيث استمرت المفاوضات مع شاور .

وفي الشام كان نور الدين، عندما بلغته أخبار ما حل بمصر مع مراسلات الخليفة العاضد وشاور ، وقد أمر على الفور شيركوه بالاستعداد للسفر إلى مصر وأرفقه جيشا قوامه « أكثر من خمسة آلاف من الرجالة الأبطال وأضاف إليهم نور الدين ألفي فارس » وانطلق شيركوه مسرعا يريد القاهرة ، ولما سمع الفرنج بنهوض عسكر الاسلام أجفلوا أجفال النعام ورحل ملكهم إلى بلبيس ، حيث أعد ما كان يحتاجه من مؤن ، وزحف في ٢٥ كانون الأول ( ١١٦٨ ) نحو الصحراء يريد شيركوه، لكنه ما أن توغل قليلا حتى جاءتته الأخبار بأن شيركوه عبر النيل مع قواته ، ودخل القاهرة ، وهنا وجد عموري أن السبل قد سدت أمامه ، وأن البقاء في مصر - كما يقول وليم الصوري - خطر ما بعده خطر ، وأن الاشتباك مع شيركوه مغامرة لا تقل خطرا ، لذلك عاد إلى بلبيس ، ومنها في الثاني من كانون الثاني ١١٦٩ م أخذ طريق العودة نحو فلسطين .

وفي القاهرة صار شيركوه سيد مصر ، وكان عليه أن يتخلص من شاور ، لتخلص له السيادة ، وقام الخليفة العاضد بمنح الاقطاعات والأموال لشيركوه وأتباعه ، وطالب شيركوه بإقطاعه ثلث البلاد ، فمأطله شاور ، وصار من عادته أن يركب كل يوم لزيارة شيركوه ، ليغرس في قلبه الطمأنينة حتى يتسنى له الغدر به ، ويبدو أن هذه النوايا كانت متوقعة ، لذلك اتفق صلاح الدين مع عدد من القادة على الفتك بشاور ، وفي أحد الأيام جاء لزيارة شيركوه فلم يجده في مقره ، وأخبره صلاح الدين بأنه ذهب لزيارة قبر الامام

الشافعي ، وتمنى عليه اللحاق به ، فاستجاب شاور ، وقام صلاح الدين بمرافقته ، وفي الطريق وثب عليه يعاونه بعض القادة ، فalcوه أرضا ، وسحبوه إلى إحدى الخيم ، « فعلم أسد الدين الحال ، فعاد مسرعا ، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه ، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين ، يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله ، وتابع الرسل بذلك ، فقتل شاور في يومه (شباط ١١٦٩ م) وحمل رأسه إلى القصر ، ودخل أسد الدين إلى القاهرة ، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه ، فقال لهم : أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور ، فقصدتها الناس ينهبونها فتفرقوا عنه ، وقصد أسد الدين قصر العاضد ، فخلع عليه خلع الوزارة ، ولقب الملك المنصور ، أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة .»

وهكذا صار شيركوه سيد مصر ، وصارت مصر فعليا من أملاك نور الدين ويعلق ولیم الصوري على هذا التغيير بحسرة بقوله : « كانت جميع موارد مصر وثرواتها الهائلة وقفا على حاجاتنا ، وحدود مملكتنا من تلك الناحية كانت آمنة ، ولم يكن هناك عدو نخشاه في جهة الجنوب ، وكان البحر آمنة ممراته لا خطر فيها على السفن الراغبة بالقدوم إلينا ، وكان أفراد شعبنا يدخلون أراضي مصر دونما خشية ويزشطون تجاريا في ظروف مناسبة جدا ، وكان المصريون يجلبون إلى مملكتنا البضائع الجيدة والحاجات الغربية غير المتوفرة لنا ، وفي زياراتهم لنا كنا نستفيد فوائد كبيرة وترقى مكانتنا ، زد على ذلك أن المبالغ الكبيرة التي كانوا ينفقونها بيننا أغنت موارد خزانتنا وزادت من ثروتنا الخاصة .»

إنما الآن إنعكست الآية وتغير كل شيء إلى الأسوأ .... فكيفما التفت أجد فقط أسبابا للخوف وعدم الراحة ، فالبحر يرفض إعطائنا ممرات آمنة ، وجميع المناطق ، المحيطة بنا خاضعة لعدونا ، والممالك المجاورة تعد العدة لتدميرنا . إنما مما يؤسف له أن شيركوه لم يتمتع طويلا بمنصبه فقد توفي بعد شهرين وعدة أيام

من تولى الوزارة ( ٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤ هـ - ٢٣ أذار ١١٦٩ م ) ، وبعد وفاته بثلاثة أيام استدعى الخليفة ابن أخيه صلاح الدين وعينه وزيرا مكانه ، ومنحه لقب «الملك الناصر» (١٧).

ولم يكن حدث وصول صلاح الدين الى السلطة امرا عابرا ، فهو لم يتم اختياره بحكم قرابته من أسد الدين شيركوه فقط ولكن لأسباب معقدة أخرى ، فقد كان الجيش الشامي في مصر يتألف من مجموعتين : واحدة عرفت باسم الأسيدي ، وكان قوامها ( ٥٠٠ ) مقاتل ، والثانية ضمت بقية الجيش وعرفت بالنورية ، وقد راس الثانية عدد من القادة ، وإثر وفاة شيركوه رشحت جماعة النورية عددا من المرشحين لخلافته ، في حين اتفقت كلمة الأسيدي على ترشيح صلاح الدين ، ونظرا لتصارع قادة النورية تهيأت فرصة النجاح امام صلاح الدين فنال منصب الوزارة ثم قيادة الجيش مكان عمه ، ورفض عدد من قادة النورية اختيار صلاح الدين ، ولذلك لم تكن الأمور سهلة امامه لدى وصوله إلى السلطة .

كان عليه أولا أن ينال تأييد قادة الجند الشامي ثم ينطلق لمواجهة مشاكل مصر ، وكانت كثيرة ، يتصدرها قصر الخلافة والجيش ، ثم كان عليه أن يوجد صيغة للتعامل مع نور الدين ، فقد ظهرت مطامح صلاح الدين الاستقلالية بشكل مبكر ، وحرصها الجهاز الذي تكون حوله .

لقد كان على صلاح الدين أن يوجد الحلول لجميع المشاكل ضمن ظروف صعبة جدا ، ووسط التهديد الصليبي الدائم ، ذلك أن الصليبيين ما كانوا ليسلموا لخسارة مصر ، بل على العكس من الملاحظ أن توجهاتهم صارت مصرية بالدرجة الأولى ، وهذا ما نراه في أخبار « الحملات الصليبية » المقبلة .

وفي البداية تمكن صلاح الدين من ارضاء غالبية القوات النورية ، والذي رفض ترك مصر وعاد إلى الشام ، وبعد هذا التفت نحو قصر

الخلافة ، حيث عرف أن بعض كبار رجاله راسلوا ملك القدس ودعوه إلى مصر ، وقد تمكن صلاح الدين في الوقت المناسب من ضبط أمور القصر ، لكن هذا قاده الى الصدام مع القوات السودانية في الجيش الفاطمي ، وكان تعدادها أكثر من ثلاثين الفا .

فقد ثار هؤلاء في القاهرة وأخذوا يحدثون الشغب والتحريق في مناطق المدينة ، وتحرك صلاح الدين ضدهم بسرعة وتمكن بواسطة قواته المنظمة من نفيهم من القاهرة ، وبذلك صفت له الأمور .

ولكن ما لبث في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م أن وصلتته اخبار عن تجهيز حملة برية بحرية قوامها جيوش مملكته القدس مع نجدات من بقية الممالك ومن الأمبراطورية البيزنطية ، وقام صلاح الدين بإرسال النجدات الى دمياط ، واعتنى بشؤون الدفاع عنها ، وكان لدمياط خط دفاعي متقدم ، فقد بنوا على طرفي مجرى النيل ، بعيدا عن أسوار المدينة أبراجا دفاعية ووصلوا بين هذه الأبراج بسلاسل ضخمة ، كانت تشد وقت الحاجة فتحول بين الأساطيل الغازية وبين الوصول الى الأسوار .

ويقدم لنا ولیم الصوري تفاصيل كبيرة حول حصار دمياط لا نجد مثيلا لها لدى المؤرخين العرب ، فهو يخبرنا بأن المقاومة كانت شديدة جدا ، وأن المؤن والنجدات كانت تصل بشكل متواصل من القاهرة ، ويعني هذا أن الحصار لم يكن محكما ، وطال الحصار ، وانعدمت المؤن لدي الصليبيين وكان المحاصرون يقلعون بين الحين والآخر بهجمات صاعقة على معسكر الصليبيين ، من ذلك أن أسطول الغزاة رست سفنه في مكان ظنوه مناسباً ، وفي أحد الأيام وجد المدافعون « بأن اتجاه الريح كان من الجنوب وأن أمواج النيل تهدر بعنف ، فساغتموا الفرصة ، وقاموا بجلب مركب عادي وشحنوه بالأخشاب اليابسة مع الإسفلت والمواد سريعة الاحتراق ، ووضعت النار في القارب ، ودفع الى النهر حيث قاده التيار بسرعة كبيرة نحو الأسطول » وقد أدى هذا الى احراق عدد كبير من السفن الكبيرة .

ومع مرور الأيام وجد عموري أنه ليس فقط من العبث بل من الخطر الكبير البقاء في مصر ، لذلك اتخذ قرارا بالانسحاب وذلك بعد حصار دام حوالي الشهرين .

لا شك أن نجاح صلاح الدين في مواجهة مجمل هذه المشاكل ، أظهر معدن الرجل ، وجاء مؤشرا بالنسبة لمستقبل الأيام ، ولعل هذا زاد من النزعات الاستقلالية لديه ، وأدى إلى توتر العلاقات بينه وبين نور الدين ، وكان بالتالي محرضا لصلاح الدين للقيام بتمتين مركزه في مصر بالذات ثم القيام بالاستيلاء على أراضي ليبيا ، وقد قاده هذا إلى الاصطدام بسلطات الامبراطورية الموحدية في تونس ، مما كان له بعض الأثر على سياسة الموحيدين في الأندلس ، ثم رفضهم التعاون مع صلاح الدين ضد الصليبيين فيما بعد .

واهتم صلاح الدين بالبحر الأحمر ، فسعى للسيطرة عليه وعلى شواطئه ، ذلك أن مصر الفاطمية كانت تمتلك أسطولا خاصا ، والاهتمام بالبحر الأحمر جر صلاح الدين إلى الاهتمام بشبه جزيرة العرب ، حيث أرسل حملة إلى اليمن فاحتلها كما أخذ يهتم بالحجاز ، ومدينتيه المقدستين - مكة والمدينة - وعندما شعر صلاح الدين بمتانة مركزه أقدم على خطوة سياسية جريئة جدا ، وهي إلغاء الخلافة الفاطمية ، فقد أمر الخطباء في أول جمعة من محرم سنة سبع وستين وخمسمائة ( ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ) بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي واستبدالها للخليفة العباسي ، والحق عمله هذا بجرد محتويات قصر الخلافة في القاهرة وبيعها وتصفية جميع ممتلكات الأسرة الفاطمية وأسبابها (١٨) .

إن مجمل الأحداث التي مرت بصلاح الدين منذ وفاة عمه وحتى تاريخ الغائه للخلافة الفاطمية فيه ما يبرهن على عبقريته وفيه في الوقت نفسه ما يشير إلى أنه ملك من الامكانات ، خاصة الادارية والعسكرية والاقتصادية ما ساعده على النجاح .

فعلى الصعيد الاداري ورث صلاح الدين من عمه ادارة خاصة

ناشئة ترأسها القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ، وكانت قدراته الادارية والثقافية عالية ، وله خبرة مسبقة بالادارة الفاطمية لمصر ، وقد رافق القاضي الفاضل صلاح الدين منذ بداية حياته السياسية في مصر ، وظل معه رئيسا حتى النهاية .

ولا شك أن وجود الادارة الناجحة الى جانب صلاح الدين ساعد على مواجهته للمشاكل العسكرية والمالية ، فصلاح الدين ورث من عمه افراد الحملة التي جاءت من الشام ، وكان فيها حوالي ٨٠٠٠ مقاتل ، لكن كما سلفت الاشارة انسحب جزء من افراد هذه الحملة إلى الشام بعد تسلم صلاح الدين للوزارة ، وجاء اعتماد صلاح الدين أساسا على الجماعة الأسدية التي كان عددها ٥٠٠ مقاتل ، وخلال فترة وجيزة شكل صلاح الدين فرقة جديدة باتت تعرف باسم الصلاحية لا ندرى تعدادها في البداية ، حيث أن المصادر لم تأت لها على ذكر ، إنما أشارت بعض المصادر إلى أن صلاح الدين أنفق سنة ١١٦٩ على قواته الجديدة مبلغا قدره ( ٥٠٠ ، ٤٨٧ ، ١ ) ديناراً ، ومن خلال بعض النصوص يتبين لنا بأن النفقة الاجمالية للمقاتل الواحد كانت قرابة « ٤٢٥ » دينار للعام الواحد ، ومن خلال عملية حسابية بسيطة يمكن أن نقدر أن عدد القوات التي جندها صلاح الدين سنة ولايته للوزارة في مصر كانت حوالي ٣،٥٠٠ ومع الأيام تضاعف عدد هؤلاء ، ففي عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م كان تعداد قوات صلاح الدين النظامية من الفرسان حوالي ١٤٠٠٠ وكانت نفقاتهم حوالي ٤٥ مليون دينار ، إنما لم تقتصر قوات صلاح الدين على الفرسان النظاميين فقط ، فقد كان هناك بالاضافة لهم المتطوعة وفرسان القبائل العربية ، ففي هذه السنة عندما استعرض صلاح الدين فرسانه « عرض العربان الخدامين فكانت عدتهم سبعة الاف فارس » .

لقد انحدر جل جند صلاح الدين من اصول اسلامية مختلفة ، او كانوا من الرقيق الأبيض المستورد ، وكان الجميع قد استعربوا وذابوا في جسم المجتمع العربي ، هذا المجتمع الذي تحمل افراده

الوزر الحقيقي والنفقات الكاملة للحروب الصليبية ، فمنه جاء رجال الادارة والصناعة والعلماء والفقهاء والمخترعون والتجار ، وافراد هذا المجتمع قدموا اعدادا كبيرة جدا من المتطوعين العسكريين وضح اثرهم في أكثر من معركة ، ويمكن أن نرى نماذج منها في أخبار تحرير الرها وفي معركة حطين ثم ملحمة عكا أثناء التصدي لما يعرف بإسم الحملة الصليبية الثالثة ، وفوق هذا كله لقد مول افراد المجتمع جميع نفقات حروب التحرير ، وافراد هذا المجتمع هم الذين حولوا بنية « الاقتصاد العربي » إلى « اقتصاد حربي » مسخر كليا للتصدي والتحرير.

ومن المؤكد أن صلاح الدين مع عدد كبير من جنده كانت أنساب أسرهم غير عربية ، وقد تصدروا الواجهة العسكرية للمجتمع العربي ، على أساس قيامهم بالمهام الجهادية ، فلقد كانت وشائج المجتمع العربي أيام صلاح الدين دينية ، وكان المسوغ الشرعي لتحكم الجند هو القيام بأعباء الجهاد في سبيل الله ، وفي ظل هذا المسوغ تحمل افراد المجتمع في المدن والأرياف لقرون طويلة الكثير من التجاوزات مع نفقات جميع الحروب ، ومن المقدران الجند كما قلنا كانوا أثناء قيامهم بمهامهم الجهادية قد استعربوا كليا ، ووجد بينهم من كانت أسرته قد استعربت منذ جيلين أو أكثر ، وإذا ما أخذنا هذا بعين الاعتبار ، وراعينا العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام ، وتذكرنا دور افراد المجتمع العربي ، نرى محصلة منطقية : إن أعمال الجهاد للتحرير والتصدي للغزو الصليبي كانت عربية صرفة ، ومع هذا لا بد من تبيان أن العسكريين المسلمين أيام الحروب الصليبية ، وإن كانوا احدى محصلات تطور المؤسسة العسكرية العباسية منذ أيام الخليفة المعتصم ، فإنهم في فترتنا كانوا يتصرفون ضمن نواظم مالية خاصة لم تكن قائمة أيام المعتصم ، فهذه النواظم ظهرت في العصر البويهسي ، وتطورت أركانها وتوطدت في العصر السلجوقي ، وقامت على ما عرف بإسم الاقطاع العسكري ، وبموجب ما حدث في العصر السلجوقي وأيام الحروب الصليبية منح مقدم كل جماعة عسكرية ، تركمانية أو كردية

أو سوى ذلك ، قطعة من الأرض ، كان ينال نصيبا من مواردها ، فينفقه على نفسه وعلى عدد معين من المقاتلين كانوا يصحبونه وقت الحاجة ، وقد كانت لهذا أثاره السلبية على مواعيد الحروب وتوقيتها ، كما كانت له أثاره البعيدة على فعالية السلطة المركزية للدولة ، وسبب مشكلة دائمة في الفرق بين العدد النظري والفعلي للجيش (١٩) .

ولابد أن المؤسسة العسكرية التي أقامها صلاح الدين بحجمها الكبير المتزايد احتاجت إلى نفقات مالية عالية ، ومؤكد أن موارد مصر وامكاناتها كانت كبيرة ، إنما عندما تسلمها صلاح الدين كانت البلاد نظرا لما مر بها من أزمات ، خزانتها على حافة الإفلاس ، ويروى أن صلاح الدين عندما تسلم وزارة القاهرة ، ورث عن عمه مبلغا معتبرا من المال ، ثم إنه عندما قام بالغاء الخلافة الفاطمية كانت الأموال المحصلة من محتويات قصر الخلافة ضخمة ، والغناء هذه الخلافة مع تصفية جيوشها وإدارتها مكن من توفير كميات معتبرة من الأموال ، يضاف إلى هذا كله أن صلاح الدين قام ببعض الإصلاحات الإدارية ، وأعاد توزيع الأراضي المقطعة ، وهكذا توفرت له احتياجات نفقاته .

وبرغم جميع ما حققه صلاح الدين في مصر ، فقد كان من الناحية الرسمية تابعا لنور الدين ، لذلك كان عليه أن يبعث بالأموال إليه مساهمة في أعمال الجهاد التي كان نور الدين قائما بها ، وارسال الأموال لنور الدين كان معناه تعطيل مشاريع صلاح الدين في مصر ، لذلك تذر نور الدين من قلة ما أرسله له صلاح الدين ، ففني سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م أرسل صلاح الدين إلى نور الدين رسولا حمله شيئا من مصادرات قصر خلافة القاهرة «فشكر نور الدين همته ، وذكر بالكرم شيمته ، ووصف فضيلته ، وفضل صفته ، وقال : ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ، ولا نسد به خلة الاقلال ، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر ، وبنا إلى الذهب فقر ، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به قدر ، وتمثل بقول أبي تمام :

لم ينفق الذهب المربى بكثرتة

على الحصا وبه فقر إلى الذهب

لكنه يعلم إن ثغور الشام مفتقرة الى الاسداد ، ووفور الأجناد ، وقد عم بالفرننج بلاء البلاد ، فيجب أن يقع التعاقد على الامداد بالمعونة والامداد ، فاستنزره وما استغزره واستقل المحمول في جنب ما حرره ، وتروى فيما يدبره ، وافكر فيما يقدمه من هذا المهم ويؤخره .»

وقرر نور الدين ارسال وزيره الخاص إلى القاهرة «وامره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها ، وأين صرفت أموالها ، فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة».

وقد أدى هذا كله إلى توتر العلاقات بين نور الدين وصلاح الدين ، ووصل التوتر الذروة في العام نفسه ( ١١٧٢ م ) ذلك أن نور الدين قرر القيام بحملة حاسمة ضد فرنجة الشام «فأرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته ، ليجمع هو أيضا عساكره ويسير إليه ، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة .... وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز ، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو ، فلما أتاه الخبر بذلك رحل عن دمشق قاصدا الكرك ، فوصل إليه ، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول إليه لاختلال وضع البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها ، فلم يقبل نور الدين عذره .

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين ، فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده ، وعزم على البخل إلى مصر ، واخراج صلاح الدين عنها ،

فبلغ الخبر صلاح الدين ، فعقد مجلس استشارة ضم أهله وعلى رأسهم والده مع كبار أعوانه ، وبعد مناقشات طويلة نصح صلاح الدين بالعمل على استرضاء نور الدين ومدافعة بالأيام ، وبالفعل أرسل صلاح الدين إلى نور الدين رسالة اعتذار مع هدية كبيرة ، فسكن غضب نور الدين ، إنما مؤقتا وظل الحال بينهما هدنة على دخن ، فقد بقي في نية نور الدين عزل صلاح الدين عندما تحين الفرصة ، ولكن هذه الفرصة لم تحن ذلك أنه توفي بشكل مفاجيء في دمشق «يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة» (١٥ - أيار ١١٧٤ م) لقد واجه حادث وفاة نور الدين في دمشق صلاح الدين بقضية مماثلة من حيث الجوهر لتلك التي واجهته إثر وفاة عمه شيركوه ، إنما وإن وجد الشبه في جوهر القضيتين ، فإن الفوارق بينهما كانت شاسعة تفوق المسافة ما بين دمشق والقاهرة ، فسورية سياسيا ليست مثل مصر ، ليس بسبب وجود الاحتلال الصليبي فيها ، ولكن لبنيتها الخاصة الجغرافية والسياسية والاجتماعية وحتى الدينية.

والباحث في حياة نور الدين المتميزة يلاحظ أن الذي واجهه من الجانب الصليبي كان عموري الأول ملك القدس ، وكان عموري قائدا متميزا أيضا ، له مطامع توسعية كبيرة ، وقد أحبط مشاريعه كلها نور الدين ، لذلك عندما بلغه خبر وفاة نور الدين شعر بأن الأقدار أعطته فرصة ثمينة ، فقرر الإمساك بها دونما تقاعس ويقول وليم الصوري : «عندما سمع الملك بوفاته - أي نور الدين - حشد جميع قوات المملكة وبدأ بحصار مدينة بانياس» وكانت بانياس تشكل الخط الدفاعي الأول لدمشق ، بحيث يبدو أن عموري استهدف مدينة دمشق فاصطدم أولا ببانياس ، وقاومته المدينة بعنف شديد ، وأثناء حصاره لها تلقى رسالة من «أرملة نور الدين التي تحلت بشجاعة فاقت بها جميع الذمساء» تطلب منه رفع الحصار والانسحاب ، وبعد حوالى الأسبوعين اضطر إلى الاستجابة ، وانسحب عائدا نحو القدس ، وفي طريق العودة شعر

بالمريض وموسع وصوله للقدس فـارق الحياة  
في ( ١١ - تموز ١١٧٤ م ) (٢٠).

والسبب الذي جعل أرملة نور الدين تقدم على مراسلة عموري ،  
هو أن نور الدين خلف بعده صبيا صغيرا عرف باسم الصالح  
اسماعيل ، وبسرعة كبيرة أعلن ابن نور الدين خليفة له في دمشق ،  
إنما هذا التحرك السريع لا يمكن أخذه مؤشرا على الوفاق  
والانسجام بين أركان دولة نور الدين في دمشق بل العكس هو  
الصحيح ، فقد شهدت دمشق في تلك الفترة العصيبة صراعا عنيفا  
حول الوصاية على الصالح اسماعيل .

وكما حدث في دمشق ، حدث في القدس ، فقد خلف عموري صبيا  
صغيرا عرف باسم بلديون الرابع ، أعلن عقب وفاة والده ملكا على  
القدس ، وشهدت القدس الآن صراعا حول الوصاية على العرش ،  
وبخلت قوى كثيرة محلية وخارجية حلبة الصراع ، وقد وصف لنا  
وليم الصوري أخبار ما حدث بكل تفصيل ، وتحدث عن الملك  
الصببي ، الذي عهد إليه أمر تربيته ، وكيف أنه عرف فيما بعد أنه  
مصاب بالجذام ، مما أعجزه وسبب موته .

وفي دمشق اشتد الصراع حول التحكم بوريث نور الدين وعطل  
هذا الأعمال القتالية ضد الصليبيين ، وفي القاهرة كان صلاح الدين  
يرقب باهتمام ما يجري في الشام ، وقد حاول التدخل بواسطة  
الرسول والمراسلة أكثر من مرة ، وأخيرا قرر الذهاب إلى دمشق  
ورئاسة مملكة نور الدين خوفا من بعثرة أراضيها وهدر طاقتها .

إن تحرك صلاح الدين نحو بلاد الشام يمكن أن يفسر من بعض  
الوجوه ، على أنه تطبيق لسياسة مصر المستقلة القوية تجاه بلاد  
الشام أكثر من أنه عمل غنثه المصالح الفردية ، فمصر كلما استقلت  
وشعرت بالقوة تسعى للسيطرة على بلاد الشام ، ذلك أن مصر كما  
هو معلوم - برغم وجودها في أفريقيا - ليس لها حدود طبيعية مع  
بلاد الشام ، وقد غزيت دائما عن طريق سورية ، لذلك عمل حكام

مصر المستقلة دائما على احتلال سورية ، ومواجهة الغزاة بعيدا عن أرض مصر ، وتاريخ مصر الاسلامية منذ قيام الدولة الطولونية فيه برهان على صحة هذا ، ولعل في حياة صلاح الدين مثل قريب ، فهو قد قدم من سورية ، وقضى على الخلافة الفاطمية ، وأحل محلها نواة دولة أسسها هو ، وبعد ما فعل ذلك شعر بأن المخاطر ضد حكمه سيظل مصدرها بلاد الشام ، وعلى هذا الأساس فبسر بعض المؤرخين تقاعسه عن تلبية دعوة نور الدين للاجتماع به عند أسوار الكرك ، حيث أن الكرك كانت تشكل حاجزا كبير الفعالية بين مصر والشام ، ذلك أن حكام مصر المستقلة عندما كانوا يواجهون حكما قويا في الشام لا يمكنهم قهره ، ويخشون منه على وجودهم ، كانوا يعمدون إلى المحافظة على قسوة أو دولة حاجزة Buffer state بينهم وبين الشام .

ويلاحظ أن مصر المستقلة كانت تنجح أحيانا في احتلال بلاد الشام ، إنما غالبا ما كانت تخفق بالاحتفاظ بالمناطق الشمالية من هذه البلاد ، ولذلك كانت تتساهل مع الشمال ، لكن لا تتساهل مطلقا مع استقلال الجنوب ، لأن مثل هذا الاستقلال كان فيه تهديد مباشر وخطير للحكم فيها ، ولعل خير ما يوضح هذا وصية مشهورة قالها يعقوب بن كلس للخليفة العزيز الفاطمي ، ثاني خلفاء الفاطميين ، في القاهرة ، قالها وهو على فراش الموت : « سالم الروم ما سالموك ، واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ، ولا تبغ على دغفل بن جراح إن عرضت لك فيه فرصة » ، وقد قصد ابن كلس بالروم الدولة البيزنطية ، وبالحمدانية حكام حلب ، حيث قنع منهم بالاعتراف الشكلي ، وبدغفل بن جراح ، أمير قبائل طيء في فلسطين الذي كان يطمع بالاستقلال (٢١) بالرملة وتأسيس دولة طائفة فيها .